

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيِّدنا وإمامنا وأسوتنا ومعلِّمنا رسول الله ،
وعلى آله وصحبه ومن أتبع هداه .

(وبعد)

فإن الله تعالى قد خلقنا لنعرفه ونعبده وحده لا شريك له ، ونقوم بخلافته في
أرضه ، وهي المنزلة التي اشرأبت إليها أعناق الملائكة أن تُناط بهم ، قائلين :
﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ
إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠) ، فخصَّ الإنسان بالاستخلاف في الأرض ،
ومكَّن له فيها ، وجعل له فيها معاش ، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ، وجعل
الإنسان مُبتلى فيها ، ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ﴾ (الإنسان: ٢) .

ومما ابتلاه الله عز وجل به : أمانة التكليف ، وهو إلزام ما فيه كلفة ومشقة ،
وهي الأمانة التي عرضت ﴿ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا
وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٧٢، ٧٣).

وكان من تمام نعمة الله على الإنسان : أنه أمده بكل ما يعينه على أداء مهمة
العبادة لله والاستخلاف في الأرض ، وبلوغ كماله المقدر له ، فمنحه العقل الذي به
يُفكر ، والإرادة التي بها يُرجح ، والقدرة التي بها يُنفذ ، وآتاه من المواهب

والمَلَكَات النفسية والروحية ما لم يؤته مخلوقاً آخر ، وأنزل عليه الكتب ، وبعث له الرسل ، مبشرين ومنذرين ؛ لئلا يكون للناس على الله حُجَّةٌ بعد الرسل .

كما كان من تمام الابتلاء للإنسان : أن سلَّط عليه نفسه التي بين جنبيه ، وهي أمارة بالسوء ، تحبُّ العاجلة ، وتذُرُّ الآخرة ، وسلَّط عليه عدوُّه إبليس اللعين (الشیطان) وجنوده ، وقد حلف أمام الله جلَّ وعلا : ﴿ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٦، ١٧) .

ومن يومها والمعركة دائرة بين الشيطان والإنسان ، وقد حذَّر الله منه أشدَّ التحذير : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (فاطر: ٦) .

وقام الأنبياء وورثتهم من العلماء بمهمتهم في تنبيه الخلق من غفلتهم ، وإمدادهم بالأسلحة التي تُعينهم في معركتهم ، حتى لا يستحوذ عليهم الشيطان فينسيهم ذكر الله ، وينضمُّوا إلى حزب الشيطان ، المجافي والمعادي لحزب الرحمن ، وركب الإيمان . وبيَّنوا ما عهد الله إليهم من عبادته عزَّ وجلَّ ، ومعاودة عدوِّه : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَبي ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٦﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (يس: ٦٠، ٦١) .

فالله تعالى يريد من عباده أن يعبدوه وحده ، ولا يشركوا بعبادته أحداً ولا شيئاً ، وذلك باتباع منهجه الرباني الذي شرعه على السنة رسله ، وخاتمهم محمد ﷺ ، والشيطان يريدهم أن يتبعوا منهجه ، ويدعوا منهج الله ، فيدعوا الهدى إلى الضلال ، والنور إلى الظلام .

ومن هنا قام الربانيون في كلِّ جيل ، متأسِّين برسول الله ، مقتبسِينَ من مشكاة نبوته ، ليردُّوا الناس إلى الله ، ويسوقوهم إلى الجنة ، مُرغِّبين ومُرهبِّين ، والأ

تغرُّهم الحياة الدنيا ، ولا يغرُّهم بالله الغرور ، وأن يسيروا في طريق عبادة الله ، مخلصين له الدين حنفاء ، وعبادة الله هنا تشمل العبادة الظاهرة ، والعبادة الباطنة .

وإذا كان (علم الفقه) يُعنى (بالعبادات الظاهرة) من الصلاة والزكاة ، والذكر والتسبيح والدعاء ، فإن (علم السلوك) أو (فقه السلوك) يعنى (بالعبادات الباطنة) من النية والإخلاص ، والتوكل والتوبة إلى الله ، والرجاء والخوف ، والشكر والصبر ، والورع والزهد ، والمراقبة والمحاسبة ، وغيرها من منازل السائرين ، ومدارج السالكين إلى مقامات (إياك نعبد وإياك نستعين) ، حسب تعبير الإمام الهروي .

ونحن نعلم أن القرآن قد جعل النجاة في الآخرة منوطة بسلامة القلب : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ (الشعراء: ٨٨، ٨٩)، والقلب السليم ، هو السليم من الشرك والنفاق ، والكِبَر والحقد والرياء ، وآثار البدع والمعاصي .

كما أن الجنة لا يدخلها إلا مَنْ كان ذا قلب منيب : ﴿ هَذَا مَا تُوَعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ ﴾ (ق: ٣٢-٣٤)، وفي الحديث المتفق عليه : « ألا إن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله »^(١) .

هذا ، وقد كنتُ أصدرت أربعة كتب في سلسلة (فقه السلوك) أو (الطريق إلى الله)، حول : الربانية والعلم ، النية والإخلاص ، التوكل ، والتوبة إلى الله ، واليوم أُتبعها بخامس عن (الورع والزهد)، ولعله كان ينبغي أن يُقدِّم على بعض ما نُشر ، ولكنني جرت عاداتي أن أكتب فيما يُيسر الله لي الكتابة فيه ، ثم أنشره على حاله ، وإن لم يكن على الترتيب الذي أحبه . ولعل ذلك يحدث ، بعد أن تتم أجزاء السلسلة ، فإما أن أرتبها أنا إن قدر الله لي ذلك ، أو يُرتبها من بعدي مَنْ يقوم على جَمْع تراثي^(٢) ، وكلُّ شيء عند الله بأجل مُسمًى .

(١) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير ، وسيأتي تخريجه ص ٣٤ .

(٢) أطال الله عمر شيخنا الإمام ونفع المسلمين بعلمه (الناشر) .

وهذا الجزء الخامس في (الورع والزهد) من هذه السلسلة المباركة (الطريق إلى الله عز وجل)، جعلته في تمهيد وثلاثة أقسام وخاتمة.

أما التمهيد ، فقد تحدثت فيه عن أهداف الناس في الحياة الدنيا.

وأما الباب الأول ، فقد جعلته في فصلين :

الفصل الأول : في تعريف الورع لغةً واصطلاحاً ، تكلمت فيه عن الورع .

والفصل الثاني : في حقيقة الورع ومراتبه .

وأما الباب الثاني ، فقد تكلمت فيه عن الزهد ، وجعلته في أحد عشر فصلاً .

الفصل الأول : في التحذير من فتنة الدنيا ، وأوردت فيه جملة من آيات القرآن

وسنة النبي ﷺ .

والفصل الثاني : في المراد بالدنيا المذمومة في القرآن والسنة.

والفصل الثالث : فيما ينكره الإسلام من الدنيا.

والفصل الرابع: تعريف الزهد عند علماء السلوك.

والفصل الخامس : حقيقة الزهد في الدنيا ومقوماته ، وهو يقوم على مقومين

أساسيين : إرادة الآخرة وإيثارها على الدنيا أولاً ، والإعراض عن اتباع الشهوات

ثانياً .

والفصل السادس : موقف الناس من الزهد في الحياة الدنيا .

والفصل السابع : عقبات في طريق الزهد ، وذكرت فيه أربع عقبات : الغفلة ،

وطول الأمل ، وانتشار القيم المادية ، وافتقاد القدوة .

والفصل الثامن : بواعث الزهد ، وذكرت فيه أربعة بواعث : ذكر الموت ،

والاعتبار بمصاير أهل الدنيا ، واستحضار الآخرة ، ومعرفة قيمة الدنيا .

والفصل التاسع : ما ليس من متطلّبات الزهد ، ذكرت فيه أربعة أمور : الإعراض عن الزواج ، والعزلة عن المجتمع ، وترك العمل لكسب الدنيا ، والإعراض عن الحياة الطيبة .

والفصل العاشر : حدود الزهد في ضروريات الحياة الدنيا في نظر الإمام الغزالي .

والفصل الحادي عشر : وقفات نقدية أمام الغلاة في الزهد ، ووقفت فيه ثلاث وقفات : الأولى : أنّ مصطلح الزهد والزهاد ليس قرآنيًا ولا نبويًا . والثانية : زهد العصور الماضية لا يصلح لعصرنا . والوقفة الثالثة : انتقدت فيها منهج الإمام الغزالي .

وأما الباب الثالث من الكتاب ، فقد أوردت فيه نماذج من زهد الخلفاء والعلماء وورعهم . وجعلته في خمسة فصول ، الأول : في زهد عمر بن الخطاب وورعه ، والثاني : في زهد علي بن أبي طالب وورعه ، والثالث : في زهد عمر بن عبد العزيز وورعه ، والرابع : في زهد إبراهيم بن أدهم وورعه ، والخامس : في زهد عبد الله بن المبارك وورعه . وأما الخاتمة فقد استقرت فيها أهم النتائج والاستباطات والتحقيقات العلمية والوقفات التحليلية .

وقد تميّز هذا الجزء من هذه السلسلة بمزيد من العناية في عدد من الجوانب ، منها : قيام الإخوة العاملين في المكتب العلمي بتوثيق النقول وتخريج الأحاديث على المنهج الذي رسمته في كتيبي الأخيرة ، وذكرته في عدد من المقدمات . وعنى الأخ الشيخ وليد أبو النجا بمراجعة الكتاب وتدقيقه .

وقد حظي الكتاب كذلك بمراجعة الأخ الشيخ مجد مكّي ، الذي قام بتصحيح الكتاب والعناية بترقيمه ، وأعاد النظر في ترتيبه ، وأضاف عددًا من العناوين الجانبية للمباحث الهامة في الكتاب ، لتدل القارئ على مضمونها ، قبل الدخول في قراءتها ، فتكون أوفى فهمًا ، وأيسر معرفة إذا أراد الرجوع إليها .

وأرجو الله أن يبارك في الوقت والعمر لإتمام هذه السلسلة المباركة (في الطريق إلى الله) ، وسيصدر قريباً - بعون الله - : المراقبة والمحاسبة ، ويتلوه الرجاء والخوف ، ثم الرضا والشوق ، والأنس والمحبة .

أسأل الله جل ثناؤه ، وتباركت أسماؤه ، أن ينفع بهذه السلسلة من (فقه السلوك) ، وبغيرها من كل ما يُقرأ ويُسمع ويُشاهد من عملي ، وأن يجعلها نوراً لمن استهدى بها ، وطوق نجاة من النار لمن اعتصم بها ، وهدايا إلى الله بإذنه ، وأن يجعلنا من عباده المقبولين عنده ، المرضيين لديه ، ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٧) ، ﴿ وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٨) ، ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿١﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ (إبراهيم: ٤٠، ٤١) .

الفقير إلى الله تعالى
يوسف القرضاوي

الدوحة في : محرم ١٤٣١ هـ
الموافق يناير ٢٠١٠ م

تمهيد

أهداف الناس في الحياة الدنيا

للناس في هذه الدنيا أهداف شتى ، فهم بالنظر إليها أنواع :
منهم من لا يعرف له غاية يعيش لها ، ولا يعرف لحياته معنى ، فهذا ميّت وإن
عدّ في الإحصاء مع الأحياء . فهؤلاء الذين قال عنهم الإمام الغزالي : (يأكلون
ليكسبوا ، ثم يكسبون ليأكلوا ! وهذا مذهب الفلاحين والمحترفين ، ومن ليس له
تنعم في الدنيا ، ولا قدم في الدين . فإنه يتعب نهارا ، ليأكل ليلا ، ويأكل ليلا
ليتعب نهارا ! وذلك كسير السواني - الدواب في الساقية - فهو سفر لا ينقطع إلا
بالموت !)^(١) .

ومنهم من يعيش لغاية قريبة ، هي أن يتمتع بحياته ، ويشبع شهواته ، فهو يأكل
ويشرب ، ويلهو ويلعب ، ويركض وراء اللذات الحسية ، والمطالب المادية الدنيوية ،
ثم ينفق كما تنفق الدابة ، فهو أشبه بمن قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ (محمد: ١٢) .
ومنهم من عرف أنه خلق لغاية ، وأنه يعيش لرسالة ، يحيا بها ، ويموت عليها ،
ويعمل بها ، ويعمل لها ، وهذا هو الذي يستحق الحياة في الدنيا ، والسعادة في
الآخرة .

وهذا النوع أصناف كذلك ، ودرجات بعضها فوق بعض ، وهم الذين قال فيهم
القرآن : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ
وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾
(فاطر: ٣٢) .

(١) إحياء علوم الدين ، للغزالي (٢٢٨/٣) .

وهؤلاء الذين يجاهدون أنفسهم في سلوكهم في الطريق إلى الله ، ليصلوا إلى جنته ورضوانه في الآخرة ، وإلى سكينه النفس والحياة الطيبة في الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٧).

وقال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (الرعد: ٢٨) ، ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

(الفتح: ٤) .

وإلى هذا النوع الأخير بأصنافه ودرجاته نكتب هذه السلسلة في (فقه السلوك) ، أو في الطريق إلى الله ، التي ظهر منها أربعة أجزاء منذ سنوات ، ثم توقفت لانشغالي بموضوعات أخرى ، منها كتابي في (فقه الجهاد) ، الذي أسأل الله تباركت أسماؤه أن ينفع به أمتنا في مسيرتها ، ويفقهها به في دينها ورسالتها ، ويجمع كلمتها على الهدى ، وقلوبها على التقوى ، ويؤلف بينها على نصره دينه بالجهاد الحق ، كما بعث الله به رسوله الكريم ، وأنزل به كتابه المبين ، لا كما يتوهمه الغلاة والمفرطون .

الفرق بين الورع والزهد :

وفي هذا الجزء نتحدث عن محطتين مهمتين من محطات الطريق إلى الله ، وبعبارات رجال السلوك: منزلتين من منازل السائرين إلى الله ، وإلى عبادته ، وهما: الورع والزهد ، فما الفرق بين الورع والزهد ؟

قال الإمام أبو الوليد بن رشد القرطبي المالكي (ت : ٥٢٠هـ) : (الورع هو : اجتناب المحرمات والمتشابهات . قال رسول الله ﷺ : « الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما أمور متشابهات ، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه » الحديث^(١) ، فاجتناب المحرمات واجب ، واجتناب الشبهات مستحب .

(١) سيأتي تخريجه ص ٣٤ .

ولا ينطلق اسم الورع إلا على مَنْ اجتنب المحرّمات والمشتبهات .
والزهد هو : ما يبعث على اجتناب المحرّمات والمشتبهات ، وترك التنعّم
بالمباح من الشهوات . فكلُّ زاهد ورع ، وليس كلُّ ورع زاهداً ، فالورع أعمُّ من
الزهد (١) اهـ .

وكذلك الورع يسبق الزهد ، فهو مُقدّمة له .

قال العلامة ابن القيم : (سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : الزهد : ترك
ما لا ينفع في الآخرة . والورع : ترك ما تخاف ضرره في الآخرة .

قال ابن القيم : وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها) (٢) .

أهمية الورع والزهد :

وقال الحسن : مثقال ذرّة من الورع ؛ خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة (٣)!

وهو يشير الى أهمية أعمال القلوب ، بالنسبة الى أعمال الجوارح .

وقال سلمان (الفارسي) : جلساء الله غداً أهل الورع والزهد (٤) .

وقال أبو واقد الليثي : تابعنا الأعمال ، فلم نجد شيئاً أبلغ في طلب الآخرة من
الزهد في الدنيا (٥) .

وقال أيضاً : ما وجدنا شيئاً أعون على أخلاق الإيمان من الزهادة (٦) .

(١) الجامع من المقدمات لأبي الوليد محمد بن رشد القرطبي ، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي .

(٢) مدارج السالكين (١٠/٢) ، طبعة دار الحديث ، القاهرة .

(٣) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين (٢٢/٢) .

(٤) ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٣٥٩٧) ، وعزاه لابن لال ، عن سلمان ، وضعفه الألباني في

ضعيف الجامع (٢٦٣٢) ، ونسبه ابن القيم في مدارج السالكين لأبي هريرة (٢٢/٢) .

(٥) رواه هناد في الزهد (٥٥٨) ، ووكيع في الزهد (٢) ، وابن أبي شيبه في الزهد (٣٥٧٦٧) ،

والبيهقي في الشعب باب الزهد (١٠٦٨٢) .

(٦) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٥٨) ، والبيهقي في الشعب باب الزهد (١٠٦٨٣) ، وابن عساكر في

تاريخ دمشق (٢٧٨/٦٧) .

وقال ابن المبارك : ما رأيت شيئاً يتقوى به على العبادة مثل الجوع والزهادة^(١) .

لماذا خلقنا الله عز وجل ؟

فمما لا ريب فيه ، ومما علمناه الإسلام في قرآنه العظيم ، وسنة نبيه الكريم : أن الله تعالى خلقنا ليمتحننا ويبتلينا بالإيمان به ، والإسلام له ، وتحقيق العبودية له ؛ لنعبده وحده لا نتعبد لأحدٍ سواه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

(الذاريات: ٥٦).

وكذلك لنقوم بخلافته في أرضه ، نقيم فيها الحقَّ والعدل والخير والصلاح ، ونظارد فيها الباطل والظلم والشرَّ والفساد . كما قال تعالى للملائكة حين أراد خلق آدم عليه السلام : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠) .

كما خلقنا عزَّ وجلَّ لنُعمِّرَ أرضه ونصلحها ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود: ٦١) ، ومعنى ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ ﴾ : أي طلب إليكم أن تُعمروها ولا تخربوها ، وأن تصلحوها ولا تفسدوها ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ (الأعراف: ٥٦) ، أي : بعد أن خلقها الله صالحةً لسكناكم ولمعيشتكم ، ولإعانتكم على رسالتكم فيها ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (الأعراف: ١٠) ، وقال تباركت الآؤه : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (الملك: ١٥) .

كيف نُحقِّق العبوديةَ لله سبحانه؟

ولكي نقوم بعبادة الله وخلافته وعمارة أرضه ، لا بدَّ لنا أن نتبع منهجه الذي شرعه لنا في كتابه ، وعلى لسان رسوله ، الذي أرسله بالهدى ودين الحقِّ ليظهره على الدين كله .

(١) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٥٩) .

ومقتضى هذا : أن نتحرر من عبوديتنا لأهوائنا أو أهواء الآخرين ، لنعبد الله وحده ، ولننقاد لشرعه بكل ما فيه من أوامر ونواهٍ ، وعقائد وأحكام . فإنما مهمة الشرع أن يُخرج الإنسان من اتباع هواه أو هوى سواه ، إلى اتباع هدى الله ، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَرِ هُدَىٰ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (القصص: ٥٠) .

حقيقة الدين :

وهذا هو حقيقة الدين : أن تسلم وجهك إلى الله ، وتحسن عملك في رضا الله ، ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ (لقمان: ٢٢) ، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ (النساء: ١٢٥) .

ابتلاء الله عباده بالتكليف :

والدين قائم على التكليف الذي ابتلى الله به عباده ، وهو التزام ما فيه كلفة ومشقة : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ﴾ (الإنسان: ٢) . وهو الأمانة التي عرضت على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان . إنها أمانة التكليف ، وهي مسؤولية ما أنقلها!

وإنما ابتلى الله بني آدم بهذا التكليف ، ليصقلهم ويعددهم به في الدنيا للخلود في الآخرة ، دار البقاء . وقد هيأهم الله بما آتاهم من نعمة العقل ، ونعمة الإرادة ، وبما بعث لهم من الرسل ، وأنزل عليهم من الكتب .

التكليف فعلٌ وتركٌ :

والتكليف فعلٌ وتركٌ ، لأنه أوامرٌ ونواهٍ . فما تُوامر به مطلوبٌ أن يفعل ، وما تُنهى عنه مطلوبٌ أن يترك ، وإن اختلفت مراتب الطلب . وهكذا كلُّ منازل الطريق إلى الله إنما هي فعلٌ وتركٌ .

الورع والزهد يدخلان في جانب الترك :

و(الورع) و(الزهد) يدخلان في باب الترك والاجتناب في أصلهما .

إذ (الورع) في حقيقته هو ترك ما حرم الله ، أو ترك ما نهى الله عنه ، أو ما لا يحبه الله من عباده ، وهذا ضربٌ من عبادته سبحانه ، فليست كلُّ العبادات شعائرٍ ومناسكٍ يُتقربُ بها إلى الله سبحانه ، بل منها : اتقاء ما يُغضبه تعالى من الأقوال والأفعال ، ظاهرة أو باطنة ، كما قال عز وجل : ﴿ وَذُرُوا ظَهْرَ الْأَثَمِ وَبَاطِنَهُ ۗ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْأَثَمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢٠) .

وهنا يأتي الحديث القائل : « اتق المحارم تكن أعبد الناس »^(١) ، فهنا يجعل الحديث عبادة الله مُجسّدة في ترك المُحرّمات « اتق المحارم » .

وفي بعض روايات الحديث : « كن ورعاً تكن أعبد الناس »^(٢) ، فجاء بلفظ (الورع) .

وكذلك (الزهد) هو تركٌ أيضاً ، لأن حقيقته الإعراض عن متاع الدنيا وزخارفها ، رغبةً فيما عند الله جل شأنه ، سواء كان زهداً في الحرام ، أم في الشبهات ، أم في فضول الحلال . وبعبارة أخرى : هو ترك كل ما يشغل عن الله سبحانه .

تخليص مفهوم الورع والزهد من الشوائب والمحدثات :

وفي ضوء هذه المُسلمات نبحت في حقيقة كلٍّ من الورع والزهد ، لنعرف ما جاء فيها من هدى الله تعالى في كتابه ، ومن هدى رسول الله ﷺ في سنته وسيرته .

(١) رواه أحمد (٨٠٩٥) ، وقال منخرّجوه : حديث جيد ، وهذا إسناد ضعيف لجهالة أبي طارق السعدي ، والترمذي في الزهد (٢٣٠٥) ، وقال : غريب ، وأبو يعلى (٦٢٤٠) ، والطبراني في الأوسط (٧٠٥٤) ، والبيهقي في الشعب باب إكرام الجار (٩٥٤٣) ، عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٠٠) .

(٢) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢١٧) ، وأبو يعلى (٥٨٦٥) ، والبيهقي في الشعب باب المطاعم والمشارب (٥٧٥٠) ، عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٨٠) .

وما قاله علماء السلوك من سلف الأمة ، الذين يُقتدى بهم فيُهتدى ، قبل أن تشيع البدع ، وتنتشر الضلالات والمحدثات ، حتى يتبين الحق ، وتتضح الغاية ، ولا يلتبس الطريق على السائرين .

الميزان الذي لا يميل والمعيار الذي لا يضل :

على أن كل ما نقله من أقوال ، وما نقصه من قصص ، وما نسوقه من مواقف ، يلزمنا أن نرده إلى الميزان الذي لا يميل ، والمعيار الذي لا يضل ، وهو المحكمات من كتاب ربنا ، ومن سنة نبينا : ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (آل عمران: ١٠١) ، لأن أقوال الخلق وأعمالهم - وإن كانوا من الزاهدين الصالحين - ليست حجة في دين الله ، لأن الخطأ جائز عليهم ، ولا معصوم إلا من لا ينطق عن الهوى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (النجم: ٤) ، ولا سيما في هذا المقام ، فالغلو فيه متوقع ، والشطط فيه وارد ؛ لأنه أمر يتعلق بالوجدان الإنساني ، وبخاصة أنه دخلت عليه مفاهيم وقيم من أمم وديانات وفلسفات أخرى غير الإسلام ، فأثرت في طريقه ، وفي أهله ، شئنا أم أبينا .

لذا كان من المهم هنا : أن نُخلص المفهوم الإسلامي المحض من الشوائب التي اختلطت به ، لنعيده إسلامياً ربانياً قرآنياً محمدياً . وهو الذي يلزمنا أن نتبعه ، ونسير على هده . وسنقسم بحثنا أو كتابنا هذا إلى قسمين : قسم للورع ، وآخر للزهد .

التخلية قبل التحلية :

وسنبداً (بالورع) لأنه سابق على الزهد ؛ لأنه كالمقدمة له ، أو لأن الورع يمثل التخلية ، والزهد يمثل التحلية ، والتخلية تسبق التحلية .

ولذا روى ابن الأعرابي في كتابه (الزهد وصفة الزاهدين) ، عن أبي سليمان الداراني - وهو أحد أئمة التربية والسلوك - أنه قال : القناعة من الرضا بمنزلة الورع

من الزهد . قال : فهذا أول الرضا . يعني : القناعة . وهو أول الزهد . يعني :
الورع^(١) .

وروى ابن الأعرابي أيضاً ، عن عثمان بن عمارة قال : كان يُقال : الورع يبلغ
بالعبد إلى الزهد في الدنيا ، والزهد يبلغ به إلى حُبِّ الله^(٢) !

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٣٦٥) ، وابن الأعرابي في الزهد (٢٤) ، وأبو نعيم في الحلية
(٢٧٤/٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٣٠١) ، وابن الأعرابي في الزهد (٦٢) .